.. ولا تزال في العين دمعة

فداء مسعد

وبدأ المشوار، لم أتخيل أن أكون معلمة، فهذا آخر ما كنت أتوقعه. في ظهيرة أحد أيام شهر أيار سنة 2000، فإذا بأخي الصغير-طالب في المدرسة التي نشأت فيها سابقاً- يحضر لي رسالة مختومة من مديرة المدرسة. في البداية فوجئت وأنا أفتح الرسالة، إذ تبادر إلى ذهني شعور باحتمالية توظيفي في المدرسة، مع أنني ما أزال طالبة جامعية في السنة الأولى.

مشاعر راودتني، وأغلبها أمنيات، بأن تكون هذه الرسالة تحمل في جعبتها خيراً، ولم أعطِ نفسي فرصة التفكير أكثر؛ ففضولي كبير في معظم مفاجآت حياتي، فإذا بالرسالة تحديد موعد اجتماع بيني وبين المديرة.

إحساس الفرح والسعادة سيطر علي، وبخاصة أن مدرستي الحبيبة بحاجة إلى مربية مساعدة في روضة الأطفال. في المساء ذهبت إلى الاجتماع، ولحظة دخولي المدرسة استحضرت جميع ذكريات الطفولة، كما أعشق ذكريات الماضي، فاختلطت مشاعر الحنين والحب والحزن والأمل؛ ففيها كانت أجمل أيامي مع أروع الزملاء، إنها أروع الأيام، فكيف لي أن لا أشتاق إليها، وكيف لا أحن إلى معلماتي الرائعات، ولا أنسى اليوم الأخير في المدرسة، حيث كانت حفلة وداع الخريجين الذين كنت من ضمنهم، بكيت من قلب قلبي، ولم أشعر بسعادة التخرج؛ لأنها كانت نهاية وجودي كطالبة في مدرستي الحبيبة، ولكن في هذا الاجتماع المصغر، شعرت أن هناك بداية مرحلة جديدة في حياتي.

دخلت الإدارة برفقة المديرة، وبعد الحديث العام، عن الدراسة في الجامعة، عبرت المديرة عن فرحتها باللقاء، وأثناء الحديث العابر، قالت المديرة بسرعة: «يوجد في روضتنا مكان شاغر لـ«مساعدة مربية»، وفي المستقبل يحتمل إن نحتاج إلى معلمة؛ فأنت ابنة المدرسة، ما رأيك أن تساعدينا في هذه الفترة؟».

ترددت بعض الشيء، فأنا طالبة سنة أولى، فماذا أفعل؟ ولكنني وعدتها بالرد غداً. شعرت بداخلي بفرحة كبيرة، وأخبرت أمي بأنني حصلت على وظيفة في المدرسة، نعم بسيطة، ولكن أرغب في العمل بجانب دراستي الجامعية، وتلقيت تشجيعاً من الأهل، وفكرت قليلاً، ومن ثم أخذت قراري وأمسكت ورقة وكتبت: «إلى مديرتي الغالية: إنني لن أكون أكثر سعادة من أن أكون متطوعة وخادمة لمدرستي طوال حياتي». التوقيع: ابنة المدرسة فداء». ولم تزل رسالتي في ملفي الخاص في المدرسة.

وأرسلت الرسالة مع أخي الصغير، وأنا أشعر بسعادة غامرة . . . مدرستي! . . . معلماتي! ذكريات الطفولة! أستطيع أن أعيش معهم مرة أخرى.

بدأت العمل في المدرسة؛ مساعدة لصف البستان، كنت أفكر تكراراً إذا كان هذا الصف في يوم تحت إشرافي سأفعل هكذا؟ وأفعل هكذا، ولكن لم يكن من صلاحياتي التعديل على الخطة أو تغيير برنامج يوم دراسي، فقط كنت أشارك ببعض الأفكار ومساعدة الطلاب في الأنشطة المختلفة.

بدأت أحب مهنة التدريس، ورأيت في نفسي معلمة، وبعد ثلاثة شهور من التدريب كمساعدة، أخبرتني المديرة أنني في السنة القادمة سأكون معلمة هذا الصف الذي تمنيت يوماً أن أكون معلمته؛ لأنني أملك الكثير من الأفكار. ولكن بعد أن أصبح الحلم حقيقة، أحسست باستحالة أن أكون معلمة صف كامل دون مساعدة أو تدريب مسبق، فما زلت صغيرة سنة ثانية جامعة، ولا أمتلك الخبرة الكافية للتدريس، ثلاثة شهور كمساعدة، شعرت بإحباط وفشل مسبق، ولكن أعشق التحدي والصعاب. وافقت على تدريس الصف، وفي شهر آب اجتمعنا

كمعلمات في بداية السنة لتوقيع ميثاق يحدد مجال عملنا، ووقعت على أن أكون معلمة لهذا الصف لمدة سنة، ولم أعلم في البداية كيف أبدأ، ولكنني كنت أدرك أنني أحب الأطفال، فأن أحبهم وأقدم لهم حباً وحناناً، وأشاركهم لحظاتهم السعيدة، يكفي لصف بستان.

البداية الحقيقية، حين شعرت أنني أستطيع أن أكون أماً لهؤلاء الأطفال، وأن أكون معلمة غير عادية، بدأت أغير في طريقة تدريسي، فنخرج كثيراً إلى الساحة، ونكسر روتين الدرس، فنجلس على الأرض، ونخربش على اللوح، ونرسم على الحيطان، نضحك كثيراً ونعمل ما نريد في كثير من الوقت، نأكل الساندويتش تحت الأشجار، مرة نعمل «مجدّرة» في الروضة، ومرة أخرى عصير ليمون، ولم أجد اعتراضاً من أحد على هذا الأسلوب المختلف.

انتهى العام الدراسي، ولم يكن هناك أي تعليق سيئ من قبل الأهالي أو الإدارة، فوجدت أن طلابي في نهاية السنة كانوا جيدين على المستوى التعليمي لهذه المرحلة، ولكن لا أحب أن أتركهم، حين ألقيت كلمة التخريج للروضة بكيت لأنني تذكرت نفسي عندما كنت طفلة في هذه المدرسة.

سنة تلو أخرى، وأنا معلمة صف بستان، تخرجت من الجامعة العام 2004، عرض علي عمل آخر بعد التخريج، لكني أصريت على بقائي معلمة في هذه الروضة، فأحببت صفي، فلا يمكن أن اتركه. فعلاقتي مع نفسي، ودراستي الخدمة الاجتماعية في الجامعة، لا تسمحان سوى أن أحب هذا المكان وهذه المكانة، وبقيت مربية رياض أطفال ست سنوات، إلى أن حدث ما كنت أتوقعه، أن أنتقل إلى التدريس الابتدائي في المدرسة نفسها.

جاء قدري أن أكون معلمة لمادة الاجتماعيات والفن للصفوف الابتدائية، فلا أستطيع أن أحب الوظيفة وأعتذر عنها، فالمعلمة لم تكن وظيفة، وإنما مهمة تحمل مفاتيح كنز الحياة لتسلمها باستمرار لأجيال جديدة، مؤمنة أن رسالتها مدشنة بالعطاء والأمانة والإخلاص، لذلك فهي رسولة وليست معلمة.

في أيامي الأولى، كانت المهمة جميلة، وأذكر سعادتي الغامرة بها، ولكن شعوري بأن جغرافية فلسطين والعالم بين يدي، ووطنية القدس، وتاريخ بلادي، أصبح من أخطر مهمات رسالتي، فقبل أن أشرح درس موقع فلسطين في الخارطة، عليّ كمعلمة أن أزرع شعور الانتماء للوطن، وألامسهم أهمية فلسطين وتاريخنا العريق وتراثنا الباقي من أبائنا وأجدادنا.

تسارعت بنا الأيام، والآن أنا معلمة للسنة الرابعة.

قبل أقل من شهر حصل موقف، أثر على نفسي وحرك مشاعري، اخترت نشاطاً يبتعد عن أسلوب الشرح للطلاب في الصف الثاني لدرس جغرافية فلسطين، طلبت منهم أن يغمضوا أعينهم ونذهب برحلة في الخيال إلى سوريا، وبدأت بسرد القصة: «نحن الآن، نسير بين الإزهار الجميلة، فهناك وردة حمراء، انظروا ما أجملها، وهناك وردة أكثر جمالاً، انظروا إليها، ولكن لن نستطيع أن نقطف الإزهار؛ لأن الحديقة ستغضب منا، أنها جميلة وسنبقي على جمالها، انظروا الأشجار ما أروعها، إنها خضراء أشجار السرو، والصنوبر، والخروب، والبلوط، . . . أصدقائي أتشمون رائحة جميلة، إنها رائحة الزعتر . . . انظروا ما أجمل هذا الجبل، فلنصعد إليه ولكن لا تحاولوا أن نسرع، لأننا سنشعر بالتعب، وها نحن نصعد، والآن أصبحنا تقريباً على قمة الجبل، ما أجمله من منظر! حيث أشجار الزيتون هنا وهناك، انظروا ما أضخم هذه الشجرة، أشعر أنها أضخم شجرة رأيتها في حياتي، فهي يا أصدقائي شجرة قديمة جداً، زرعها أجدادنا قبل مئات السنين، ها هي قريتي عابود أمامنا، ما أجملها! وما أجمل بيوتها! انظروا ها هو شارع مدرستنا، وها هي بيوتنا . . . انظروا إلى الجانب الغربي إنه البحر إنه قريب جداً، ما رأيكم أن نكمل رحلتنا إلى البحر، فأجابوا نعم، فلنذهب إلى البحر، فأجبتهم ولكن شرط أن نستمع لتعليمات المعلمة، فوافقوا بشدة، وها نحن الآن نسير باتجاه البحر نزولاً عن الجبل، محذرةً طلابي ألا يسرعوا لخطورة النزول بشكل سريع، ولكننا الآن في المنطقة السهلية، التي لا جبال فيها، فهذا يدل على أننا اقتربنا من شاطئ البحر . . إنه أمامنا.

انظروا . . فلنركض لنصل إليه بأقصى سرعة، ولنتدحرج على السهول الخضراء، ولكن يجب عليكم الاستماع لتعليماتي . . اتفقنا! في هذه اللحظة استوقفتني الطالبة ياسمين لتصرخ: «إنني أرى البحر ها هو، وتشير بيدها كأنها تلامس سطح الماء، وأجبت: نحن على مقربة منه، فلنسرع لنصل إليه وها نحن الآن على شاطئ البحر ما أجمل رمال الشاطئ! ما رأيكم أن نخلع أحذيتنا لنسير بحرية أكثر؟ إنه البحر، ما أجمله! بإمكانكم الآن أن نبني بيوتاً وقصوراً على هذا الشاطئ. وبدا الطلاب باللعب، إلى أن أتت الطالبة ياسمين والدموع في عينيها تقول: «ميرال هدمت لي قصري». فذهبت إلى حيث كانت تبني قصرها، من أين هدمته؟ فأشارت إلى جهة معينة، وقالت من هنا يا معلمة، فوجهت الكلام إلى ميرال، علينا أن نكون حذرين، لكي لا نهدم بيوت أصدقائنا. فقالت ميرال: ليس بالقصد، وإنما أثناء بناء جسري اصطدمت به، فطلبت منها أن تعتذر من صديقتها، وأشرت على ياسمين بإمكانها أن تعيد إصلاحه. ومن بعيد كان سلمان يجمع الصدف، هذا ما لاحظته من خلال نزوله إلى الأرض والبحث وصراخه بين لحظة وأخرى، ها هي وحداة . . إنها كبيرة، ونظرت إليه وقلت: ها هي واحدة هنا يا سلمان، فركض وقال: انظري كم جمعت صدفاً . . . وكان كل الطلاب مشغولين بعمل ما، ولكن اقترب موعد انتهاء الحصة، فطلبت منهم أن نعود إلى البيت ونودع الشاطئ الآن، ولكن رفضوا: «لا يا مس خلينا كمان شوي بدنا نلعب». ولكنني عاهدتهم أن نعود إلى هذا المكان برحلة أخرى فوافقوا وعادوا إلى مقاعدهم، والذي أعادنا إلى واقعنا كان صوت الجرس يعلن انتهاء الحصة، فصرخوا: هل سنذهب رحلة أخرى؟ وأنا جددت وعدي لهم بذلك، وحملت كتبي لأخرج من الحصة، ولكن في عيوني دمعة . . ولا تزال.

فداء مسعد
مدرسة عابود الأساسية المختلطة